

من رسالة الجاحظ في «مفاخرة الجواري والفلمان»

لجاحظ اللخاني هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي اللخاني البصري (١٥٩هـ-٢٥٥هـ) أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها. اختلفت في أصله فمنهم من قال بأنه عربي من قبيلة كنانة ومنهم من قال بأن أصله يعود للزنج وأن جده كان مولى لرجل من بني كنانة وكان ذلك بسبب بشرته السمراء وفي رسالة الجاحظ اشتهر عنه قوله أنه عربي وليس زنجي.



السبت ٩ أيار (مايو) ٢٠٠٩

بقلم: [الأوان](#)

(٠٠٠) قال صاحب الفلمان: إن من فضل الفلام على الجارية أن الجارية إذا وُصفت بكمال الحسن قيل: كأنها غلام، ووصيفة غلامية.

قال الشاعر يصف جارية:

لها قد الفلام وعارضاه وتفتير المبتلة اللعوب

(٠٠٠) وأكثر من ذلك قول الشاعر قول الله عز وجل: "يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون" وقال تبارك وتعالى:

"يطوف عليهم ولدان مخلدون. بألوانٍ وباريق." فوصفهم في غير موضع من كتابه، وشوِّق إليهم أوليائه.

قال صاحب الجواري: قد ذكر الله جل اسم المحور العين أكثر مما ذكر الولدان، فما مجتئك في هذا إلا كجئتنا عليك.

ومما صان الله به النساء أنه جعل في جميع الأحكام شاهدين: منها الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله تعالى، وجعل الشهادة على المرأة إذا رُميت بالزنا أربعة مجتمعين غير مفترقين في موضع، يشهدون أنهم راوه مثل الميل في المكحلة. وهذا شيء عسير، لما إراد الله من إغماض هذا الحد إذ جعل فيه الشدخ بالمجارة.

وانما خلق الله الرجال بالنساء.

وريج الجارية أطيب، ونيابها أعطر، ومسيتها أحسن، ونفعتها أرق، والقلوب إليها أفيل. ومتى أردتها من قدام أو خلف من حيث يحسن ويحلت وجدت ذلك كما قال الشاعر:

وصيفة كالفلام تصالح لل أمرين كالفصن في تنبئها أكلها الله ثم قال لها لما استتمت في هسنها: إيه

قال: ونظر بعض الحاج إلى جارية كأنها دمية في محراب، قد أبدت عن زرايع كأنه جمارة، وهي تكلم بالرقى، فقال: يا هذه،

تكلمين بمثل هذا وأنت هاجرة! قالت: لست هاجرة، وإنما عجم الحمل، الست تراني جالسة وهو يمشي! قال: ويحك، لم

أر مثلك فمن أنت؟ قالت: أنا من اللواتي وصفهن الشاعر فقال:

ورقت وجلت واسكرت وأكلت فلو جن إنسان من الحسن جنت



قال صاحب الغمام: إن أهدأ لا يدخل الجنة إلا امرؤ، كما جاء في الحديث: "إن أهل الجنة يدخلونها جُزراً مكحّلين". والنساء إلى المرء أميل، ولهم أشهى، كما قال الأعشى:

وأرى الفواني لا يواصلن امرأ فقد الشَّبَاب وقد يصلن الأمرا

وقال امرؤ القيس:

فيا رب يومٍ قد أروغُ مرجلاً هيباً إلى البيض الأوانسِ أملسا أراهن لا يُحببن من قلّ ماله ولا من رأين الشَّيب فيهِ وقوفاً

وقال علقمة بن عبدة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصيرٌ بأدواء النساء طبيبٌ إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له في ورهْنٍ صيبٌ يُرذن ثراء المال حيث عامنه وشرفُ الشَّبَاب عندهنَّ عجيبٌ

قال صاحب الجوارى: فإن الحديث قد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "هُبِّتِ إِلَى النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجَعَلْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ". ولم يأت للغمام مثل هذه الفضيلة. وقد فُتت بالنساء الأنبياء عليهم السلام، منهم داود، ويوسف، عليهما السلام. قال صاحب الغمام: لو لم يكن من بليّة النساء إلا أن الزنا لا يكون إلا بهن، وقد جاء في ذلك من التغليظ ما لم يأت في غيره في الكتاب نصاً، وفي الروايات الصحيحة. قال الله تبارك وتعالى: "وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا"، وقال: "وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُصْ

أَتَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا"، وقال: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ. وَقَدْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ شَهْوَرُ التَّلَاعُنِ وَالْفَرْقَةِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا، إِلَى مَا أَعَدَّ لِلْكَازِبِ مِنْهُمَا مِنَ اللَّعْنِ وَالْفُضْبِ فِي الْآخِرَةِ.

(...) قال صاحب الغمام: إن من فضل الغلام على الجارية أن الجارية إذا وُصفت بكمال الحسن قيل: كأنها غلام، ووُصِفَتْ غلامية.

قال الشاعر يصف جارية:

لها قدُ الغلام وعارضاه وتفتير المبتلة اللعوب

(...) وأكثر من ذلك قول الشاعر قول الله عز وجل: "يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون" وقال تبارك وتعالى: "يطوف عليهم ولدانٌ مُخَلَّدُونَ. بِالْوَابِ وَابَارِقُ". فوصفهم في غير موضع من كتابه، وسوّق إليهم أولياءه.

قال صاحب الجوارى: قد ذكر الله جلَّ اسم المور العين أكثر مما ذكر الولدان، فما مجتلك في هذا إلا كجئتنا عليك. ومما صان الله به النساء أنه جعل في جميع الأحكام شاهدين: منها الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله تعالى، وجعل الشهادة على المرأة إذا رُميت بالزنا أربعة مجتمعين غير مفترقين في موضع، يشهدون أنهم رأوه مثل الميل في المكحلة. وهذا شيءٌ عسير، لما إراد الله من إغماض هذا الحد إذ جعل فيه الشَّيْخ بالمجارة.



وانما خلق الله الرجال بالنساء.

ودرج الجارية أطيب، وثيابها أعطر، ومشيها أحسن، ونفعتها أرق، والقلوب إليها أنيل. ومتى أردتها من قدام أو خلف من حيث يحسن ويحلت وجرت ذلك كما قال الشاعر:

وصيفة كالفلام تصاح لل امرين كالغصن في تنثيرها أكلها الله ثم قال لها لما استتممت في حُسْنها: إيهي

قال: ونظر بعض الحاج إلى جارية كأنها دمية في محراب، قد أبدت عن ذراع كأنه جُمارة، وهي تكلم بالرفق، فقال: يا هذه، تكلمين بمثل هذا وانت حائرة! قالت: لست حائرة، وانما يحج الحمل، الست تراني جالسة وهو يمشي! قال: ويحك، لم أرى مثلك فمن أنت؟ قالت: أنا من اللواتي وصفهن الشاعر فقال:

ورقت وجلت واسكرت وأكلت فلو جن أنسان من الحسن جنت

قال صاحب الغمان: إن أهدأ لا يدخل الجنة إلا امرء، كما جاء في الحديث: "إن أهل الجنة يدخلونها جُرداً مكحلين". والنساء إلى المرء أميل، ولهم شهوى، كما قال الأعشى:

وأرى الفواني لا يواصلن امرأ فقد الشباب وقد يصلن الأمرا

وقال امرؤ القيس:

فيا رب يوم قد أروج مرجلاً هبباً إلى البيض الأوانس ألسا
أراهن لا يحببن من قل ماله ولا من رآين الشيب فيهن وقوساً

وقال علقمة بن عبدة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأرواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلت ماله فليس له في ورهقن صيب
يُرذن تراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

قال صاحب الجواري: فإن الحديث قد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "هُبِّتِ إِلَى النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجَعَلْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ". ولم يأت للغمان مثل هذه الفضيلة. وقد فتت بالنساء الأنبياء عليهم السلام، منهم داود، ويوسف، عليهما السلام. قال صاحب الغمان: لو لم يكن من بليّة النساء إلا أن الزناً لا يكون إلا بهن، وقد جاء في ذلك من التغليظ ما لم يأت في غيره في الكتاب نصاً، وفي الروايات الصحيحة. قال الله تبارك وتعالى: "ولا تقربوا الزناً إنّه كان فاحشاً وساء سيلاً"،

وقال: "ولا يزنون ومن يفعل ذلك يأت أثاماً. يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً"، وقال: "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة". وقد جعل بينهما إذا لم يكن شهوؤ التلاعن والفرقة في عاجل الدنيا، إلى ما أعد للكاذب منهما من اللعن والفضب في الآخرة.



قال صاحب الجواري: ما جعل الله من المدّ على الزاني إلا ما جعل على اللوطي مثله. وقد روي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه أتى بلوطيًّا، فأصعد المنذرة ثم رمى منكساً على رأسه، وقال: "هكذا يرمى به في نار جهنم".
 وحدث عن أبي بكر، رضي الله عنه، أنه أتى بلوطيًّا فعرب عليه هائطاً.
 وحدث أبي بكر أيضاً رضي الله عنه، أن خالد بن الوليد كتب إليه في قوم لا طؤا فأمر بإحراقهم.
 وأحرقهم هشام بن عبد الملك، وأحرقهم خالد بن عبد الله بأمر هشام.
 وفي الحديث مجاهد أن الذي يعمل عمل قوم لوط لو اغتسل بكل قطرة من السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً (...)